وتشكل الزراعة عماد الحياة الاقتصادية في البصة، تحت اشراف المجلس المحلي الذي يقوم بتعيين الحراس للمزروعات، وتحديد مواعيد جني المحاصيل.

ويقوم العمل الزراعي فيها على الأيدي العاملة، الأمر الذي جعل كبر حجم الاسرة ضرورياً، ليشارك الجميع ـ بمن فيهم ربة البيت ـ بالزراعة. ولجأ بعض الفلاحين ذوي الملكيات الكبيرة الى استخدام عمال مقابل أجور سنوية معينة، وفي مواسم الجني يستقدمون عمالاً من لبنان، يتفاوت عددهم مع حجم انتاج الأرض (الغلة).

وكالعادة كانت طبقة المالكين الكبار للأرض يشكلون ما يعرف بـ«الوجهاء»، وهي طبقة تهتم بالمحافظة على مكانتها الاجتماعية، فتلجأ الى مسايرة الحكام (الاتراك فالبريطانيين)، مما جعلها تتخلى عن الموقف الوطني والقومي. وابان الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) هرب بعض أفرادها الى لبنان، وبقوا فيه حتى انتهاء الثورة. أما من تبقى منهم في القرية فتعرض للاهانات ومحاولات الاغتيال.

ويصف حداد في هذا الفصل، بالتفصيل، مراحل زراعة القمح وجنيه كنموذج للعمل الزراعي في البصة، معدداً أدوات الفلاحة، وتقسيمات الأراضي الزراعية: المارس، القاطوع، المعناة، الحبل، الكرم، الخلة، المراح، الدبة.

ثم يستعرض الأعمال الاخرى التي يمارسها أهل البصة كالتجارة والحرف اليدوية والوظائف العامة والتهريب بحكم موقع قريتهم الحدودي.

ويتطرق الى مكانة المرأة في القرية فيرى أنها، مقارنة بالقرى الاخرى، اكثر حظاً، نتيجة مساهمتها في العمل الزراعي، وربما بسبب الاختلاط المذهبي في البصة.

الزواج

الصفات المطلوبة في العروس هي: صلة القرابة، والمكانة الاجتماعية (الحسب والنسب)، والغنى، والقدرة على العمل الزراعي، والجمال، والأخلاق، كما يفضل في العريس صفات مماثلة، أضيف اليها العلم مع انتشاره في الأربعينات.

وكانت السن الأفضل للزواج بين ١٤ و١٧ للاناث، و ١٧ و٢٠ للذكور، وبسبب العلم بدأ التحول نحو التأخر في الزواج منذ الثلاثينات.

ولا يترك المؤلف معلومة، مهما كانت صغيرة، دون أن يذكرها في هذا الفصل متتبعاً جميع مراحل الزواج، والتقـاليد المتبعة فيه، والاغاني التي يرددها أهل البصة في هذه المراحل، متطرقاً الى المتاعب الزوجية، ومشاكل الكنة والحماة، وتعدد الزوجات وهو أمر نادر في هذه القرية، وزواج البدل، والعلاقة بين «السلفات».

الحمل والاطفال

يعتبر انجاب الاطفال في المجتمات الزراعية الهدف الرئيس للزواج، وذلك لزيادة «العزوة» تعزيزاً للمكانة الاجتماعية. ولذا، يفضل المواليد الذكور باعتبارهم الأقدر على تحمل مشقات العمل الزراعي.

ويهتم الكاتب بشرح الأساليب التي كانت متبعة في حالة تأخر الحمل مثل الكي والتمليس والحمامات واللزقة وعمل «الحجاب».

كمـا يتابع مراحل الطفولة من الرضاع الى الفطام والتسنين وأساليب التربية الى الجلوس والمشي والعاب الاطفال وتعليم النطق، وأغاني الامهات لأطفالهن، ووسائل تخويفهم وهي: الغول والعبد الأسود والضبع والكلب الأسود والحرامي.

ويفصل، أيضاً، احتفال الختان (الطهور) عند المسلمين، والعماد عند المسيحيين.

الوفاة